المحاضرة الثالثة

أنساق الفروسية والمروءة

إعداد الدكتورة: ريما عبدالكريم رجوب
جامعة حماه
المعهد العالي للغات/ ماجستير تأهيل وتخصص
العام الجامعي ٢٠٢٥/٢٠٢٦

د. ريما رجوب

مدخل :في أصل المفهوم وأبعاده

تُعدّ منظومة الفروسية والمروءة من أبرز الأنساق القيمية التي شكّلت الشخصية العربية عبر حقب متعاقبة؛ إذ لم تكن مجرد سلوكيات اجتماعية عابرة، بل كانت بنية أخلاقية متكاملة تعكس رؤية الإنسان العربي للذات والآخر والعالَم .وتكشف دراسة هذا النسق في مساراته التاريخية عن طبيعة التفاعل الحضاري الذي خضعت له القيم العربية، من بيئة الصحراء البِدْوية إلى رحاب المدينة والدولة في العصور الإسلامية.

والمروءة —بمعناها الاشتقاقي من "المَرء "أي الإنسان— تحمل في طياتها الدلالة على اكتمال الإنسانية وبلوغ مرتبتها العليا .وتتضافر معها الفروسية بوصفها تجسيداً عملياً لهذا المثال الأخلاقي في ميادين السلوك اليومي والبطولة والكرم.

أولاً :المنظومة القيمية في العصر الجاهلي:

١ . الفضاء الصحراوي ومولد القيم

أسهمت البيئة الصحراوية القاسية في صياغة منظومة قيمية متميزة، لم تكن ترفاً ثقافياً بل استجابةً وجودية لمتطلبات البقاء والتماسك القبلي .فالكرم لم يكن فضيلة اختيارية بل ضرورة حياتية في ظل شُح الموارد، والشجاعة لم تكن مغامرة بل صون للجماعة، والوفاء بالعهد كان عقداً اجتماعياً تقوم عليه حركة القوافل وتوازن القبائل.

٢ . المكارم الجاهلية :المفاهيم الكبرى

الشجاعة في الدفاع عن الحِمى والذِّمار :(وكانت مقرونة بضبط النفس "وعدم التهور، وهو ما يُعرف بـ"الحِلم حين يكون مقروناً بالقدرة على الانتقام.

" :الجود والكرم :إذ يقول الشاعر طَرفة بن العبد

فلو شاء ربي كنتُ قيساً ولم أكن على النائبات اليوم أجبن من ثعلبِ

مؤكداً أن الكرم شجاعة أخرى.

الوفاء وصون الذِّمة :ومنه المثل الخالد في وفاء السموأل حين آثر فداء ودائع امرئ القيس على نجاة ابنه.

حفظ الجوار والأمان :وهو ما يُعبَّر عنه بـ"لا يُخفَر جاري "ويمثل ركيزة العلاقات البينية.

الأنفة والحمِيّة :أي صون الكرامة وعدم احتمال الضيم، وهو ما يُسمى "الأنَفة الشريفة "حين تُحرّك النفسَ للمقاومة لا للظلم.

٣. الشعر سجلُّ القيم ومَعينها

كان الشعر الجاهلي الديوانَ الأخلاقي لهذه المنظومة؛ يحفظها ويُشيعها ويُقوّمها .فعبر المعلقات والقصائد المنسوبة إلى الفحول كانت القيم تُصاغ قولاً ونموذجاً، وتنتقل من جيل إلى جيل عبر قنوات الشفاهة والحفظ والرواية .ولذا كان لشعراء المدح والهجاء دورٌ قضائي في تقييم الشخصيات وفق هذا الميزان الأخلاقي.

ثانياً :تحولات القيم في صدر الإسلام

جاء الإسلام ليُعيد تأطير هذه المنظومة القيمية وتعميقها، لا اقتلاعها .فقد احتفظ بجوهر الفضائل وصبّها في إطار توحيدي يربطها بالمصدر الإلهي ويُضفي عليها بُعداً تعبدياً .يتجلى ذلك في الحديث النبوي الشريف" :إنما بُعثتُ لأُتمِّم مكارمَ الأخلاق"، وهو نص دالٌّ على منطق الاستمرار والتوجيه لا القطيعة والإلغاء.

وتعكس هذه المرحلة ثلاثة توجهات كبرى في علاقة الإسلام بالمنظومة القيمية السابقة:

التوجيه الأخلاقي :إذ حوَّل الكرمَ من فخرٍ قبلي إلى فريضة اجتماعية مرتبطة بالزكاة والإنفاق في سبيل الله.

التهذيب والتصحيح :إذ كبّح غلواء الحَمِيّة وحوّلها من عصبية ضيقة إلى حمية الحق، وقيَّد الشجاعة بضوابط الجهاد الأخلاقية.

التأصيل والتأسيس :فأضاف قيماً جديدة كالتواضع والرحمة والعدل بين الأقوياء والضعفاء.

ثالثاً :مفهوم الفتوّة — القيم في إطار المؤسسة

تُعدّ "الفتوّة "من أرقى التجليات المؤسسية لمنظومة الفروسية والمروءة في الحضارة الإسلامية .فقد تطورت من مفهوم أخلاقي فردي إلى تنظيم اجتماعي منظّم له قواعده وطقوسه وشعاراته .وتاريخياً ازدهرت نقابات الفتيان في العصر العباسي، خاصة في عهد الخليفة الناصر لدين الله)576 .622هـ (الذي رعى مؤسسة الفتوّة ووضع لها ميثاقاً وشعائر.

أخلاقيات الفتوّة وقيمها

- إيثار الغير على النفس حتى في ضيق الحال.
- التزام الصدق في السر والعلن، إذ كان الفتى لا يغلّق بابه دون الضيف.
- الإعراض عن الانتقام حين تمكّن الفتى من خصمه.
- نصرة المظلوم من أيّ طائفة كان.
- الإخاء المتعالي عن الفوارق الطبقية والعرقية.

رابعاً :الفروسية في ذروة الحضارة العربية الإسلامية

١ .أدب الفروسية :التنظير والتدوين

شهدت العصور الذهبية للحضارة العربية إنتاجاً وفيراً في أدب الفروسية، وهو أدب يجمع بين الجانب العملي)تدريب الخيل، فنون الحرب (والجانب الأخلاقي)سلوك الفارس، مكارمه

ومن أبرز هذه الآثار:

- نهاية السُّول والأمنية في تعليم أعمال الفروسية "لابن أيبك الدواداري".
- كتب الفراسة والسياسة والأدب السلطاني كـ"سراج الملوك "للطرطوشي.
- أدب الملوك والأمراء الذي ربط بين الفروسية الحربية والفضيلة الأخلاقية.

٢ . الفارس الكامل :النموذج الحضاري

رسمت الحضارة العربية الإسلامية في عصرها الذهبي صورة للفارس الكامل تجمع بين أبعاد متعددة :فهو محارب مقتدر ومتعلم متثقف ومتدين وفارس :شاعر في آن .وقد تجسّد هذا النموذج في شخصيات تاريخية مثل

- الخليفة عمر بن الخطاب :الجمع بين العدل والشجاعة والزهد.
- صلاح الدين الأيوبي :البطولة الحربية مقرونة بالوفاء وإكرام الأعداء.
- عنترة بن شداد)النموذج الملحمي :(الجمع بين الفروسية والرقة الشعرية.

خامساً :التفاعل مع الثقافات المجاورة وتطور المنظومة

لم تتشكّل منظومة الفروسية والمروءة في عزلة؛ بل تغذّت من التلاقح الحضاري مع ثقافات الجوار في مرحلة الفتوحات وما تلاها .ومن أبرز مواضع :هذا التفاعل

القيم الفارسية :استُقي من التراث الفارسي مفهوم "الملك العادل) "الشاه العادل (الذي أثّر في أدب الوصايا .السياسية العربي

التراث الهندي :أسهمت ترجمة كتاب "كليلة ودمنة "في تعميق الحكمة الأخلاقية العملية لمنظومة السلوك القيادي .

الفلسفة اليونانية :أعادت ترجمة كتب أرسطو في الأخلاق صياغة بعض .المفاهيم بلغة برهانية منظّمة

غير أن هذا التفاعل لم يُذب الخصوصية، بل أسهم في بناء منظومة أخلاقية .ذات هوية متميزة تجمع بين الخصوصية الثقافية والانفتاح الإنساني

د. زيما الجوف

سادساً :الأبعاد الجمالية للمنظومة — الشعر والرمز

لم تكن الفروسية والمروءة منظومة أخلاقية صارمة جافّة؛ بل اكتسبت بعداً جمالياً راقياً تجلّى في الشعر والحكاية والرمز .فالفارس الأصيل في التراث العربي لا يُعرَّف بسلاحه بل بلسانه وشعره وكرمه .ومن أجمل الأمثلة على هذا البُعد:

- معلقة عنترة :التي تجمع بين البطولة الملحمية والغزل الرفيع وتأمل المصير، وكأنها تعلن أن الفارس الأكمل هو .الشاعر الأقدر
- قصيدة أبي تمام في المعتصم)ومطلعها" :السيف أصدق إنباءً من الكتب :("التي ترفع من شأن الفعل الأخلاقي على القول المجرد.
- سير الملوك والفرسان في ألف ليلة وليلة :التي نقلت هذه القيم إلى الخيال الشعبي وجعلتها في متناول أوسع الشرائح.

سابعاً :المرأة في منظومة القيم — حضور مُغيَّب أم دور فاعل؟

من الأهمية بمكان مساءلة هذه المنظومة من منظور جنساني؛ إذ تبدو ظاهرياً منظومة ذكورية مركزها الفارس المحارب .بيد أن التأمل العميق يكشف عن حضور المرأة بأشكال متعددة:

- المرأة مَصون الشرف والكرامة :وهو بُعد دفاعي يجعلها محوراً لمفهوم الحمية والشجاعة.
- المرأة الناقدة الأخلاقية :كالخنساء التي كانت حَكَمةً في الفخر والرثاء، وكأمهات الفرسان اللواتي رَبَّيْن أبطالاً بكلمة.
- المرأة الشريكة في المروءة :إذ كانت مروءة المرأة بيتاً لمحاور قيمية خاصة كالصبر والكرم والوفاء.

وقد نبّه ابن حزم الأندلسي في "طوق الحمامة "إلى أن الحب النبيل بحد ذاته ضرب من ضروب الفروسية التي تُهذّب النفس وترفع الهمة.

ثامناً :أفول النموذج وإشكاليات الاستمرار

مع تراجع الحضارة العربية الإسلامية وانحسار دورها الريادي، خضعت منظومة الفروسية والمروءة لضغوط شديدة .وتتضافر عوامل عدة في تفسير هذا التحوّل:

- التحول من الدولة إلى الفردانية :إذ فقدت الفروسية رعايتها المؤسسية مع ضعف الدولة وتفتت السلطة المركزية.
- الصدمة الاستعمارية :التي أضعفت الثقة بالذات وأفرزت ازدواجية بين منظومتين قيميتين متنافستين.
- ضغوط الحداثة والمدنية الصناعية :التي فككت روابط القبيلة والمجتمع المتجانس التي كانت الحاضنة الطبيعية لهذه القيم.

بيد أن هذه المنظومة لم تنقرض؛ بل انتقلت إلى فضاءات جديدة كالأدب الروائي المعاصر والسينما والخطاب الديني الاجتماعي، حيث يستمر النقاش حول ما يُشبه "مشروع استعادة "لهذه القيم في سياق حداثي.

خاتمة :القيمة بين الأصالة والتجدد

ختاماً، يتبين لنا أن منظومة الفروسية والمروءة ليست طيفاً من الماضي بل خيط ذهبي يشدّ بنية الشخصية الثقافية العربية عبر تحولاتها .وهي، إن أردنا قراءتها قراءة حضارية حقيقية، تكشف لنا عن نظام أخلاقي وظيفي ومتجدد يُؤصَّل في كل عصر من مواضعه ومفاهيمه وتحدياته.

والسؤال الذي تطرحه هذه المحاضرة على أجيال الحاضر هو :كيف يمكن أن تُترجَم هذه القيم الكبرى — الكرم والوفاء والشجاعة والعدل — إلى فعل حضاري معاصر؟ وهل نحن أمام "مروءة جديدة "تنتظر من يصوغها؟